المِنَحُ السَّنِيَّة
عَلَى الوَصِيَّةِ المَتبُولِيَّة

تأليف

الإمام الربّاني العارف بالله تعالى

الشيخ عبد الوهّاب الشّعراني

المتوفى ٩٧٣هـ

ضبطه وصحّحه وعلّق عليه

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيّالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي فرض التوبة وحرَّم الإصرار، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له كاتب الآثار، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله صفوة الأخيار، ﷺ وعلى آله وصحبه السادة الأبرار. وبعد:

فهذا تعليق على وصيّة الشيخ العارف بالله تعالى: أبي إسحاق إبراهيم المتبولي، طيّب الله ثراه وجعل الجنة متقلبه ومثواه، ونفعنا والمسلمين ببركاته، وأعاد عليّ وعليهم من صالح دعواته.

والله تعالى أسأل أن ينفع به وأن يجعله خالصاً لوجهه، إنه على كل شيء قدير.

أول الوصيّة

عليك أيها الأخ بالاستقامة في التوبة

والتوبة في اللغة:

الرجوع. يقال: تاب، أي: رجع.

وفي **الشرع**: الرجوع عما كان مذموماً في الشرع إلى ما هو محمود في الشرع.

ولها بداية ونهاية:

فبدايتها: التوبة من الكبائر، ثم الصغائر، ثم المكروهات، ثم من خلاف الأولى من راية الحسنات ومن راية أنه صار معدوداً من الفقراء، ثم من راية أنه صدق في التوبة، ثم من كل خاطر يخطر له في غير مرضاة الله تعالى.

وأما **نهايتها**: فالتوبة كلما غفل عن شهود ربّه تعالى طرفة عين.

وذكر المحققون من أهل الطريق: أن من ندم على ذنبه واعترف به فقد صحّت توبته لأن الله تعالى لم يقض علينا في توبة أبينا السيد آدم عليه الصلاة والسلام إلا الاعتراف والندم. فلو كان ثَمَّ أمر زائد لقصَّهُ علينا. وقول العلماء: إن من شرط التوبة الإقلاع وَعَزْمُ أن لا يعود، إنما أخذوه بطريق الاستنباط، إذ النادم على شيء من لوازمه الإقلاعُ وعَزْمُ أن لا يعود. ومعلوم أن التوبة تغفر حقوق الله تعالى وظلم العبد لنفسه بارتكاب المعاصي دون الشرك بالله تعالى، وإن كان هو يرجع إلى ظلم النفس أيضاً، ودون حقوق الخلق من مال وعرض، وسيأتي الكلام عليهما إن شاء الله تعالى.

وبدأ الشيخ بالتوبة، لأنها أساس لكل مقام ترقَّى إليه العبد حتى يموت.

فكما أن من لا أرض له لا بناء له، كذلك من لا توبة له فلا حال له ولا مقام.

ومن كلامهم: من أحكم مقام توبته حفظه الله تعالى من سائر الشوائب التي في الأعمال، فهي نظير مقام الزهد في الدنيا يحفظ صاحبه من سائر ما يحجب عن الحق تعالى، وحثٌّ على الاستقامة في التوبة لأنه متى ما كان في التوبة اعوجاج، انسحب حكمه ـ أي الاعوجاج ـ في كل مقام بعده فيصير بناؤه مُهَلْهلاً كمن بنى حائطه من اللبن اليابس بغير طين.

قال سيدي محمد بن عنان رحمه الله تعالى: من استقام في توبته عن المعاصي، ارتقى إلى التوبة من كل ما لا يعني، ومن لا يستقم فيها لا يشم من التوبة عن الفضول رائحة، ولا يقدر على رعاية خاطره أبداً، بل يغلب عليه خواطر المعاصي حتى في صلاته. وتأمل قوله تعالى للمعصوم الأكبر ﷺ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هُود: الآية 112] فأمره الله تعالى بالاستقامة في التوبة ومن تاب معه من جميع أتباعه وأمته[(1)].

وقال سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى: من استقام في توبته وزهد في الدنيا، فقد انطوى فيه سائر المقامات والأحوال الصالحة.

تنبيه: ينبغي للعبد أن يفتش أعضاءه الظاهرة والباطنة، صباحاً ومساءً، هل حفظت حدود الله تعالى التي حدَّها لها أو تعدَّت، وهل قامت بما أُمرت به من غضّ البصر، وحفظ اللسان والأذن والقلب، وغير ذلك على وجه الإخلاص أو لم تقم؟ فإن رأى جارحة من جوارحه أطاعت شكر لله تعالى ولم ير نفسَه أهلاً لذلك، وإن رآها تلطخت بمعصية من المعاصي أخذ في الندم والاستغفار، ثم يشكر الله تعالى إذ لم يقدر عليه أكثر من تلك المعصية، ولم يَبْتَل جوارحه التي عصت بالأمراض والجراحات والدمامل والقروح، فإن كل عضو استحق نزول البلايا به.

(1) عن ابن عباس قال: قال أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه لرسول الله ﷺ: أراك قد شبت، قال: «شيَّبتني، هود، والواقعة، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كُورت» رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، تفسير سورة هود، حديث رقم (3314) [2/ 374].

فاعلم ذلك يا أخي والزم التوبة وأبغض الدنيا تبعاً لله تعالى، فإن الله تعالى لم ينظر إليها منذ خلقها لشدة بغضه لها. وفي الحديث: «حبّ المال والسرف ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماءُ البقلَ»[1].

وقد كان أبو عبد الله سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: لو أن عبداً عَبَدَ الله تعالى بجميع المأمورات إلا أنه يحبّ الدنيا إلا نُودي عليه يوم القيامة على رؤوس الجمع: «ألا إن هذا فلان ابن فلان قد أحب ما أبغض الحق تعالى»، فيكاد لحم وجهه يسقط. والمراد بالدنيا ما زاد على الحاجة الشرعية.

وكان أبو الحسن علي بن المزين رحمه الله تعالى يقول: «لو زكيتم رجلاً حتى جعلتموه صديقاً لا يعبأ الحق تعالى به وهو يساكن الدنيا بقلبه، فقيل له: فإذا ساكنها لأجل إخوانه وعياله وغيرهم من الملازم لينفقها عليهم، فقال: دعونا من هذه الزلقات، والله ما هَلَكَ من هلك من أهل الطريق إلا من حلاوة الغنى في نفوسهم، والله الذي لا إله إلا هو إني لأعرف من يدخل عليه عرض الدنيا فيقسمه على حقوق الله تعالى فيصير ذلك مع براءة ساحته حجاباً قاطعاً له عن الله تعالى.

وكان سيدي أبو الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى يقول: لا يترقّى مريد قط إلا إن صحت له محبة الحق تعالى، ولا يحبه الحق تعالى حتى يبغض الدنيا وأهلها ويزهد في نعيم الدارين.

وقال أيضاً: كل مريد أحبَّ الدنيا فالحق تعالى يكرهه على حسب محبته لها كثرةً وقلّةً، فيجب على المريد أن يرمي الدنيا من يده ومن قلبه أول دخوله في الطريق، ومتى تلقن على شيخ أو أخذ عليه العهد وهو يميل إلى الدنيا، فلا بد أن يرجع من حيث جاء وترفضه الطريق. فإن أقل أساس يضعه المريد في الطريق الزهد في الدنيا، فمن لم يزهد في الدنيا لا يصح له بناء شيء في الآخرة.

---

(1) الذي ورد قوله ﷺ: «الغِناء يُنبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل». رواه البيهقي في السنن الكبرى، باب الرجل يغني. . .، حديث رقم (20791) [10/ 223].

وكان سيدي عبد القادر الجيلي رحمه الله تعالى يقول: من أراد الآخرة فعليه بالزهد في الدنيا، ومن أراد الله تعالى فعليه بالزهد في الآخرة. وما دام في قلب العبد شهوة من شهوات الدنيا، أو لذة من لذاتها، من مأكول، أو ملبوس، أو منكوحٍ، أو ولاية، أو رياسة، أو تدقيق في فن من فنون العلم الزائد عن الغرض، كرواية الحديث الآن وقراءة القرآن بالروايات السبع وكالنحو والفقه والفصاحة، فليس هذا محبّاً في الآخرة، إنما هو راغب في الدنيا تابع لهواه.

وكان أبو عبد الله المغربي رحمه الله تعالى يقول: الفقير المجرَّد عن الدنيا، وإن لم يعمل شيئاً من أعمال الفضائل، أفضل من هؤلاء المتعبدين ومعهم الدنيا، بل ذرة من عمل الفقير المجرّد أفضل من الجبال من أعمال أهل الدنيا.

وكان سيدي أبو المواهب الشاذلي رحمه الله تعالى يقول: العبادة مع محبة الدنيا شغل قلب وتعب جوارح، فهي وإن كثرت قليلة، وإنما هي كثيرة في وهم صاحبها، وهي صورة بلا روح وأشباح خالية غير حالية، ولهذا ترى كثيراً من أرباب الدنيا يصومون كثيراً ويصلُّون كثيراً ويحجون كثيراً وليس لهم نور الزُّهاد ولا حلاوة العبَّاد. وحقيقة الزهد في الدنيا هو: ترك الميل إليها بالمحبة لا بخلوِّ اليد من الدنيا لعدم نهي الشارع عن التجارة وعن عمل الحِرف، ولا قائل بذلك.

وإنما درج جمهور الصحابة والتابعين على خلوِّ اليد من الدنيا ليقتدي بهم المحجوبون عن مشاهدة الأكابر، فلذلك أظهروا لهم الزهد في الدنيا بخلو اليد، ونهوهم عن التبسُّط في الدنيا خوفاً عليهم أن يدخلوا في محبتها فلا يهتدون بعد ذلك للخروج عن حبها والمزاحمة عليها. فإن الكاملين لا يشغلهم عن الله تعالى شيء في الكونين، بخلاف القاصرين.

فسلّم يا أخي لكل من تراه متجملاً بالثياب من القوم، إلا إن خفت على أتباعه أن يتبعوه مع الجهل بمشهده، فلك أن تنهاه عن ذلك خوفاً على تلامذته أو تأمره بأن يقول لهم: لا تقتدوا بي في حسن الملابس والمناكح والمراكب، فإن هذا ليس لكم الآن، هذا إن وُجد ذلك من مال حلال، وإلا فالإنكار على ذلك

الشيخ واجب، فافهم.

ثم لا يخفى أن الزاهدين ما زهدوا حقيقة إلا في ما لم يُقسم، وأما ما قسم لهم فلا يصح لأحد الزهد فيه بأن يتركه، وإنما الزهد فيه يكون بترك الميل إليه عادة بحيث لا يبخل به عن مستحقه ولا يشتغل به عن ربه. فاعلم ذلك يا أخي واترك المباحات طلباً لترقي المقامات العلية.

قال سيدي علي المرصفي رحمه الله تعالى: لا يصح لمريد قَدَمٌ في الإرادة حتى يترك فعل المباحات، ويجعل مكان كل مباحٍ تركه مأموراً شرعياً من مندوب أو ولي، ويجتنب المباح كأنه منهيّ عنه كراهة تنزيه. وقد أجمعوا على أن كل من مهَّد لنفسه ارتكاب الرخص دون العزائم لا يجيء منه شيء في الطريق.

وقال سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى: ما جعل الله تعالى المباح إلا تنفيساً لبني السيد آدم عليه الصلاة والسلام من مشقة التكليف حين ركَّب الله تعالى في ذواتهم المَلَل من التكاليف، ولو أن الله تعالى لم يركب في ذواتهم الملل لم يشرع لهم المباح كما فعل بالملائكة، لأنهم لا يعرفون للملل طعماً، فلذلك كانوا يسبِّحون الليل والنهار ولا يفترون.

قال: ولما كان القوم من شأنهم الأخذ بالعزائم دون الرخص للترقي، كما هو معلوم من أحوالهم، طلبوا من المريدين العمل على تقليل المباحات جهدهم ويجعلون مكان ذلك طاعة يثابون عليها، فإذا لم يجدوا طاعة نَوَوْا بالمباح من أكل وكلام خيراً كالتقوِّي على العبادات بأكل تلك الشهوة وزوال العبوسة بمباسطة إخوانهم ببعض كلام ونحو ذلك.

وآخذوا المريد بالنوم من غير ضرورة، وبالأكل من غير جوع، وبالكلام من غير حاجة، وبمخالطة الناس إلا لضرورة، فأرادوا أن يثاب مريدهم ثواب الواجبات في سائر أحواله، فيأكل حين يجب عليه الأكل، ويتكلم حين يجب عليه الكلام مثلاً. فإن نزل عن ذلك فلا ينزل عن الاستحباب فيأكل حين يُستحب الأكل، ويتكلم حين يُستحب الكلام.

وكذلك آخذوا المريد بالنسيان وبالأحلام في ليل أو نهار إلا لحاجة.

وآخذوه بالخواطر ولو لم تستقر. وآخذوه بأكل الشهوات المباحات لكونها توقفه عن الترقي. وفي زبور السيد داود عليه السلام: «يا داود حَذِّرْ وانذر قومك أكل الشهوات فإن قلوبَ أهل الشهوات محجوبة عني». وكما أن أكل الشهوات يطرد العبد عن حضرة الله تعالى، فكذلك مَدُّ الرجل من غير حاجة بجامع سوء الأدب.

وقال أيضاً: لا يبلغ المريد مقام الصدق حتى يزيد في تعظيم أمر الله تعالى ونهيه، فيفعل المندوب كأنه واجب، ويجتنب المكروه كأنه حرام، ويجتنب الحرام كأنه كفر، وينوي بجميع المباحات خيراً ليثاب على ذلك، فينوي بالنوم في القيلولة التقوِّي على قيام الليل، ويتناول بعض الشهوات للمداواة لنفسه إذا نفرت من العبادات بالكلية، فإن لسان حال النفس يقول لصاحبها: كن معي في بعض أغراضي وإلا صرعتك. وكذلك ينوي بلباس الثياب الفاخرة إظهار نعمة الله تعالى دون الحظوظ النفسانية، وكذلك يأكل الزبد من الطعام والبارد الحلو من الشراب لأجل استجابة أعضائه ليشكر الله تعالى بعزم.

وقد كان أبو الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى يقول لأصحابه: كلوا من أطيب الطعام واشربوا من ألذ الشراب، وناموا على أوطأ الفراش، والبسوا لين الثياب، فإن أحدكم إذا فعل ذلك وقال: الحمد لله، يستجيب كل عضو فيه للشكر بخلاف ما إذا أكل خبز الشعير بالملح ولبس العباءة، ونام على الأرض، وشرب الماء المالح السخن وقال: الحمد لله، فإنه يقول ذلك وعنده اشمئزاز وبعض سخط على مقدور الله تعالى. ولو أنه نظر بعين البصيرة لوجد الاشمئزاز والسخط الذي عنده يرجح في الإثم على من تمتع بالدنيا بيقين، فإن المتمتع بالدنيا فعل ما أباحه الحق سبحانه وتعالى، ومن كان عنده اشمئزاز وسخط فقد فعل ما حرَّمه الحق عز وجل.

وافعل ذلك يا أخي واحذر من دقائق الرياء خوفاً من ضياع الأجور وظلمة القلب، ومنها: استحلاء العبادة.

قال صاحب «الوصية»: سمّ قاتل محبط للعمل، ولولا شهود الضعفاء

تعظيم مقامهم عند الناس بسهر الليالي الكاملة ما استطاعوا سهر ليلة كاملة فضلاً عن دوام السهر. وقد أجمع العارفون على أن من علامة الرياء استحلاء العبادات، لأن النفس لا تستلذ لعبادة إلا إن وافقت هواها ولو أنها خلصت من الهوى لثقل عليها، ومنها العمل لله تعالى ولشيء آخر.

قال سيدي عبد القادر الدشطوطي رحمه الله تعالى: عليك بإخلاص القصد لله تعالى، ولا تتهاون في ذلك وترضى بتلبيس نفسك عليك تهلك، كأن يكون الباعث لك في فعل العبادات أمرين: فاني وباقي. وهذا من أصعب طرق الرياء على المبتدئين لأنه يشبه عليهم ويعسر عليهم الخلاص منه، بخلاف الرياء المجرد فإنه يُفهم بأدنى تأمل. قال: ولو غلب الباقي على الفاني فهو رياء.

وقول بعضهم: إذا غلب الباعث الباقي كان الحكم له، إنما هو في حق العوام الذين لا يقدرون على سلوك الطريق، أما من يقدر على سلوك الطريق من العلماء العاملين فلا يسامح بمثل ذلك. ومثال الفاني والباقي أن يكون لك عند أمير أو مُعَظَّم حاجة وذلك الأمير أو المعظم يصلي الجمعة أو غيرها في الصف الأول أو في مكان معروف به، فتتهجد في الصلاة إلى جانبه لتحصِّل مرادك منه لا لتؤدي الفريضة في ذلك المكان على تلك الصفة.

ومن المعلوم أن الباعث على ذلك العمل هو ذاك القصد الأول لا قصد اتقان أمور الصلاة. وقد أجمعوا على أن توحيد القصد واجب، ليجعلوا لهم همّاً واحداً متعلقاً بواحد لا يشم من توحيد الحق تعالى رائحة.

ومنها: العبادة بقصد التقرُّب من حضرة الله تعالى، فإن ذلك كالعمل بأجرة. قالوا: وهذه العلة أخفى العلل وربما ترقى صاحبها إلى قريب من حضرة الله تعالى فيقال له: ارجع لست من أهلها، إنما أهلها من يعبد الله تعالى امتثالاً لأمره ووفاءً بواجب حقه تعالى.

ومنها: ادعاء المقامات قبل بلوغها أو بعد بلوغها، ولم يؤذن لهم في إظهارها. ثم إن ذلك المدعي يعاقب بحرمان ما ادعاه فلا يناله بعد ذلك أبداً كما جُرِّب.

ومنها: محبة اطلاع الناس على العبادة وغيرها.

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى: مِنْ أضَرِّ شيء على المريدين: الإكثار من الأعمال الصالحات يُحمد على ذلك إذ لا يزداد بكثرتها إلا طرداً ومقتاً. وهذا يخفى على كثير من المريدين، ومن هنا أوجبوا على المريد الإسرار بعمله حسب طاقته حتى يقوى ويتمكّن.

وقال أيضاً: ربما يفعل المريد أمراً يحمد عليه ولا يقصده فيظن أنه مخلص، والحال أنه مرائي. وذلك كأن يرد مثلاً ما يعطيه له الناس تعففاً فيحمده الناس على ذلك فيصغي إلى مدحهم فيرجع عمله إلى الرياء لو لم يقصد ذلك أولاً.

ومنها: ترك العمل من أجل الناس.

قال الفضيل بن عياض: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الحق تعالى منهما.

ومعنى ذلك: أن من عزم على عبادة وتركها مخافة أن يراه الناس فهو مراءٍ لأنه تركها من أجل الناس، أما لو تركها ليفعلها في الخلوة فهذا مستحبّ إلا أن تكون فريضة أو زكاة واجبة، أو يكون ممن يقتدى به، فالجهر في ذلك أفضل.

ومنها: حكاية الأعمال الصالحات التي وقعت في أزمان مضت ولم يشعر بها أحد إلا لغرض شرعي، فإن حكايتها بغير غرض شرعي يردّها إلى صورة الرياء بها حال عملها.

ومن وصيّة سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى لأصحابه: احذروا من التسميع بأعمالكم فإنه يبطلها كالرياء على حد سواء، كما صرح بذلك الحديث.

لكن للتسميع دواء وهو: أن يندم العبد على ذلك، ويتوب من ذلك توبة صادقة بأنه لا يعود يُسمع أحداً من الناس بعمل من أعماله، إذ التوبة الصادقة تمحو تلك الزلّة، فإذا تاب كذلك رجع العمل صحيحاً بمشيئة الله تعالى، ومثل ذلك كمثل رجل كان صحيح الجسم، ثم طرأ عليه مرض أفسد صحته فاستعمل

دواءً نافعاً فأزال الله تعالى به ذلك المرض وعاد الجسم بفضل الله تعالى حال صحته، فعُلم أن للتسميع دواء بخلاف الرياء لأنه يفسد العمل من أصله.

ومنها: قطع المزح المباح إذا دخل من يُستحيى منه، وقد كان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: لو قيل: إن أمير المؤمنين داخل عليك الساعة فسويت لحيتي بيدي لخفت أن أكتب في جريدة المنافقين. فلا تقطع يا أخي المزح المباح لأجل داخل عليك إلا بنيّة صالحة فإن خرق ناموس العبد عند من يستحيى منه أولى من ارتكابه صفة النفاق.

ومنها: الزيادة في الإطراق والخشوع لدخول أحد من الأكابر وغيرهم.

وقد كان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول: إذا دخل على أحدكم أمير وفي يده سبحة يسبِّح بها فلا يُدِمْها في يده إلا بنيّة صالحة، وليحذر من أن يكون جالساً يضحك وهو غافل عن الله تعالى فيدخل عليه أمير فيأخذ السبحة بيده فيسبح بها إلا بنيّة صالحة هروباً من الوقوع في الرياء المحبط للأعمال. انتهى.

ودقائق الرياء كثيرة مذكورة في كتب القوم، فاعلم ذلك يا أخي، واحذر أيضاً من أذى الخلق إنه من السموم القاتلة. قال الإمام سهل رحمه الله تعالى: إنما حجب الخلق عن الوصول ومشاهدة الملكوت بشيئين: سوء الطعمة، وأذى الخلق. وقال أيضاً: أصولنا سبعة: التمسك بكتاب الله تعالى، والاقتداء بسيدنا رسول الله ﷺ، وأكل الحلال، واجتناب المعاصي، والتوبة، وأداء الحقوق. وكف الأذى على نوعين:

أحدهما: كف أذى الجوارح الظاهرة.

ثانيهما: كف القلب عما يخطر فيه من سوء الظن بالناس، فإنه من السموم القاتلة، ولا يشعر به كل أحد لا سيما سوء الظن بالأولياء والعلماء وحملة القرآن.

وفي وصية سيدي علي بن وفا رحمه الله تعالى: إياكم، أيها المريدون، أن

تقعوا في حق أحد من أقران شيخكم فإن لحوم الأولياء سم ولو لم يؤاخذوكم. وإياكم ثم إياكم من الاستهانة بغيبة أحد ولو لم تبلغه تلك الغيبة بل خافوا منها أكثر مما تخافون إذا بلغته فإنه وليّه الله. انتهى.

فاعلم ذلك يا أخي، واحذر أيضاً من أكل غير الحلال، فإن أكل غير الحلال يقسي القلب ويظلمه ويحجبه عن دخول حضرة الله تعالى ويخلق الثياب.

قال الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى: لو أن عبداً عَبَد الله تعالى حتى صار مثل هذه السارية، ثم إنه لم يدر ما يدخل جوفه أحلال أم حرام ما تقبل منه.

وقال أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى: أطب مطعمك وما عليك بعد ذلك أن لا تصوم النهار ولا تقوم الليل، يعني نفلاً.

وقال أبو بكر الترمذي رحمه الله: ما مَنع القوم من الوصول إلا الاستدلال بغير الدليل، والركض في الطريق على حد الشهوة، وأكل الحرام والشبهات.

وقال الإمام سهل رحمه الله: من لم يكن مطعمه من حلال لم يكشف عن قلبه حجاب، وتسارعت إليه العقوبات، ولا تنفعه صلاته ولا صيامه ولا صدقته.

وقال الإمام سفيان: عليكم بأكل الحلال وإياكم وأكل الحرام، فإني كنت وأنا آكل الحلال أقرأ الآية فيفتح لي سبعون باباً من العلم، فلما أكلت من طعام من لا يتورع صرت أقرأ الآية وأرددها فلا يُفتح لي باب واحد.

وقال الشيخ علي الشاذلي رحمه الله تعالى: من أكل الحلال لاَنَ قلبُه وَرَقّ ونَارَ، وقلّ نومه، ولم يحجب عن حضرة الله تعالى. ومن أكل غير الحلال قسا قلبه وغلظ وأظلم، وحجب عن حضرة الله تعالى، وكثر نومه. وذلك من جملة رحمة الله تعالى لأن أكل غير الحلال يحرك الأعضاء للمعاصي فيطلب كل عضو منه أن يعصي، فيتفضل الله عليه بالنوم ليريحه من المعاصي كما أنه يتفضل على الطائع بأكل الحلال ليقيمه بين يديه ليلاً ونهاراً.

وقال سيدي علي الخَوّاص: من أكل الحرام وأطال العبادة، فهو كالحمام الذي رقد على بيض فاسد، فهو يتعب نفسه في طول المقام ثم لا يفرخ شيئاً،

بل يخرج مِذَراً.

ومن مفاسد أكل الحرام: استحالته ناراً، فيذهب شجية الفكر ولذة الذكر، ويحرق نبات إخلاص النيّات، ويعمي البصيرة، ويظلم البصر، ويوهن الدين والبدن والعقل، ويورث الغفلة والنسيان، ويمنع من ذوقات الحكم والمعارف. وأطال في ذلك، ثم قال: وبالجملة: فجميع المعاصي التي يفعلها العبد إنما سببها أكل الحرام، فمن أكل الحرام وطلب أن يعمل الطاعة فقد رام المحال.

تنبيه: يجب على من أكل شيئاً ثم وجد بعده علامة من علامات الحرام أن يأخذ في القيء إن أمكنه، وإلا أخذ في التوبة والاستغفار.

ومن العلامات: أن يكون للشرع على ذلك الطعام اعتراض من حيث وضع اليد.

ومنها: وجود الظلمة في القلب، والثقل في الطبيعة، حتى كأن من أكله أكل رصاصاً.

ومنها: أن يقوم من النوم فيمكث ساعة حتى يستيقظ كما يقع لمن يأكل الربا.

ومنها: أن تلعب النفس فيتقاياه قهراً عليه من غير معالجة.

فاعلم ذلك يا أخي، ولا تغفل عن تفتيش هذه اللقمة فإنه القطب.

ولا تأكل طعام من لا يتورع في كسبه، ولو أنه غضب منك لا تلتفت إليه، ولا لقوله: كسرت خاطرنا. وهذا الأمر قل من يتنبه له من مشايخ هذا العصر بل بعضهم يأكل من طعام المساكين، ولمّا لاموه قال: خفت أن أكسر خاطره، وما عُبد الحق تعالى بشيء أفضل من جبر الخواطر. وهذا من الجهل بقواعد الشريعة. ولا فرق بينه وبين من عزم عليه شخص بأن يشرب معه الخمر، فلو قال: إنما شربت جبراً لخاطره، حددناه ولم نقبل له عذراً وحكمنا بفسقه.

فاعلم ذلك يا أخي، واحذر أيضاً من الحياء الطبيعي فإنه معدود من جملة الكبر عند القوم، وقد أشار سيدي عمر بن الفارض رحمه الله تعالى بقوله:

تمسك بأذيال الهوى واخلع الحيا وخلِّ سبيل الناسكين وإن جلوا

وهو ـ أي الحياء الطبيعي ـ أن يستحيي الشخص أن يذكر الله تعالى برفع الصوت بحضرة الناس، وأكثر من يترك ذلك بحضرة الناس: أصحاب الأنفس كالعصاة والمباشرين والشيوخ ونحوهم، فإذا كُلِّف أحدهم أن يذكر الله تعالى بحضرة الناس حصل عنده خجل كأنه ارتكب معصية. فمثل هؤلاء يجب عليهم الذكر برفع الصوت حتى يخرجوا عن الكبر.

وكان سيدي محمد رحمه الله تعالى يأمر أصحابه برفع الصوت بالذكر في الأسواق والشوارع والمواضع الخربة المهجورة، ويقول: اذكروا الله تعالى في هذه الأماكن حتى تصير تشهد لكم يوم القيامة، وتخرقوا ناموس طبع النفس فإنكم في حجاب ما لم تخرقوه.

فاعلم ذلك يا أخي واحذر أيضاً من غش الحرفة، فإن الغش في الحرفة مذموم شرعاً، وقد روى مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة أن النبي ﷺ مر في السوق على صبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت بللاً فقال: «ما هذا يا صاحب الطعام؟» فقال: يا رسول الله أصابته السماء، قال: «أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس». ثم قال ﷺ: «من غشنا فليس منّا»[1]. انتهى.

ومعلوم أن كل إنسان يعرف في حرفته ما يقع به التقوى وما به يقع الغش، وقد جعل الله تعالى العبد أميناً على نفسه في حرفته، فإذا غش خان دينه ونفسه والناس أجمعين. وقد قالوا: كل من نصح في حرفته ولم يعتمد عليها بارك الله له في ماله من حيث لا يشعر حتى يصير من أوسع الناس مالاً، ومن غش حرفته انكشف، حاله وتبددت بركته وصار عن قريب يضرب به المثل في الخمول، لأن الله تعالى جعل الفقر في الغش والبركة في التقوى.

وقد حث المشايخ سلفاً وخلفاً على عمل الحرفة تبعاً للقرآن العظيم والسنّة الشريفة، وأشهدهم في ذلك السادة الشاذلية، فكان الشيخ أبو الحسن الشاذلي

(1) صحيح مسلم، باب قول النبي ﷺ: «من غشنا فليس منّا»، حديث رقم (1ـ 102) [1/ 99].

رحمه الله تعالى يقول: من اكتسب وقام بفرائض ربه تعالى عليه فقد كملت مجاهداته.

وكان الشيخ أبو العباس المرسي رحمه الله تعالى يقول: عليكم بالسبب وليجعل أحدكم مكوكه سبحته، وقدومه سبحته، والخياطة سبحته، والسفر سبحته.

وقد أجمع العلماء على أن الكسب واجب وجوباً مؤكداً ملحقاً برتبة الإيمان، ومعلوم أن من لا كسب له فهو كالمرأة لا حظ له في الرجولية.

وكان صاحب «الوصية» رحمه الله تعالى يقول في حكم الفقير الذي لا حرفة له، حكم البومة الساكنة في الخراب ليس فيها نفع لأحد.

ولما ظهر رسول الله ﷺ بالرسالة لم يأمر أحداً من أصحابه بترك الحرفة التي بيده بل أقرهم على حِرَفهم وأمرهم بالنصح فيها، وكان يقول: «الكامل من يُسَلِّك الناس وهم في حرفهم لا من يأمرهم بترك الحِرفة حتى يسلكهم». فإنه ما من أمر مشروع إلا ويمكن العارف أن يوصِّل صاحبه إلى حضرة الله تعالى منه بخلاف الأمور التي لم تشرع. وكان يقول: «المؤمن أكمل عندي من المجاذيب من مشايخ الزوايا الذين يأكلون بدينهم وليس بيدهم حرفة دنيوية تعفهم عن صدقات الناس وأوساخهم».

وقد أكرم الله تعالى المحترفة بأمور فُضِّلوا بها على المتعبدين من غير حرفة:

الأول: أن أعمال أحدهم له لكونه يأكل من كسبه لا من صدقات الناس وأوساخهم.

الثاني: عدم دعواه العلم وتكبره على الجاهلين، فيشهد حقارة نفسه وتعظيم غيره.

الثالث: سلامته من الشبه العقلية في الله تعالى وفي رسله وأحكامه.

الرابع: إذا وقع في معصية يصير يشهد قبحها لا يرى أنه فعل شيئاً يكفرها، وغير ذلك.

وكان سيدي علي الخواص يقول: عندي أن الذي يأكل من كسبه ولو مكروهاً كالحجام والتنواني(1) أحسن من المتعبد الذي يأكل بدينه ويطعمه الناس بصلاحه. اهـ.

ثم لا يخفى أن الكسب للتكاثر والتفاخر مذموم شرعاً، وفي الحديث: «من طلب الدنيا حلالاً مكاثراً مفاخراً لقي الله تعالى وهو عليه غضبان»(2). وكان الإمام الشافعي رحمه الله تعالى يقول: طلب الزيادة من الحلال عقوبة ابتلى الله بها أهل التوبة. فاعلم ذلك وجاهد نفسك، أي خواطرها، في الشرع.

قال الإمام سهل رحمه الله تعالى: أسوأ المعاصي حديث النفس ولعل غالب الناس لا يعدون ذلك ذنباً، وإذا اتقى المريد الإصغاء إلى حديث النفس وكان ملازماً للذكر اتقد القلب بالذكر وصار القلب سراً محفوظاً، وهناك يبعد عنه الشيطان كل البُعد ويبعد عن العبد الخواطر الشيطانية، ولا يصير معه إلا خواطر نفسانية يسعى في قطعها بميزان العلم. اهـ.

فاعلم ذلك يا أخي وجاهد نفسك بالجوع بطريقه الشرعي، وهو: تقليل الأكل شيئاً فشيئاً، وقَدم الجوع على غيره، لأنه معظم أركان الطريق، ولأنه ليس للنفس في بداية أمرها شيء أسرع لانقيادها من الجوع، لأنه مذل الملوك فضلاً عن غيرهم، ولأنه يحل من الأجزاء الترابية والمائية بقدر ما يكون، فيصفو القلب، ولأن باقي الأركان تابع له بالخاصة، ولأن خواطر النفس لا ضعف إلا به.

وذكر الشيخ محيي الدين بن العربي رحمه الله تعالى في «الفتوحات المكيَّة»: أن الله تعالى لما خلق النفس قال لها: من أنا؟ فقالت: من أنا؟ فأسكنها في بحر الجوع ألف سنة، ثم قال تعالى: من أنا؟ فقالت: أنت ربي.

---

(1) القائم توظيفة إجراء الماء.

(2) رواه الطبراني في مسند الشاميين، من حديث مكحول عن أبي هريرة، برقم (3465) [4/ 330] ونصه كاملاً: عن مكحول، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من طلب الدنيا حلالاً استعفافاً عن المسألة وسعياً على أهله وتعطُّفاً على جاره، جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر. ومن طلب الدنيا حلالاً مكاثراً لقي الله وهو عليه غضبان».

وكان الشيخ أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى يقول: مفتاح الدنيا الشبع، ومفتاح الآخرة الجوع، يعني أعمالها، ولما خلق الله الدنيا جعل في الجوع العلم والحكمة، وجعل في الشبع الجهل والمعصية.

وكان يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله تعالى يقول: الشبع نار، والشهوة مثل الحطب، يتولد منه الإحراق ولا تنطفىء ناره حتى تحرق صاحبها.

وكان سهل بن عبد الله التستري رحمه الله تعالى يقول: من أراد أن يأكل من اليوم مرتين فَلْيَبْنِ له معلفاً.

وكان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: من أراد أن يغر الشيطان من ظلمه فليقهر شهوته.

وأقاويل السلف في ذلك كثيرة، فاعلم ذلك يا أخي وجاهد نفسك بالجوع والسهر المفرطين، وإتعابها في الأعمال الشاقة تعذيباً لها لتنقاد لك إذا دعوتها لمرضاة الله تعالى، وذلك لأنها قبل الرياضة تشبه الدابة الحرون، وكالعجل الذي يعلمونه الطحن في الطاحون، فتراهم يجوعونه ويغمون عينيه ويدورونه بالضرب في الطاحون أو غيرها على الفارغ، فلا يزال كذلك حتى يظهر لهم منه كمال الانقياد، فهناك يطعمونه ويفكون الغماء عن عينيه. فاعلم ذلك يا أخي وقلِّل النوم ما أمكنك لأنه ليس فيه فائدة دنيوية ولا أخروية فهو أخو الموت، وقد عدوا من اتباع الهوى إيثار النوم على قيام الليل في مثل ليالي الصيف، وذلك دليل على عدم محبة الحق تعالى. وقال: السهر الدائم يذيب الأركان الأربعة ويحلها: الماء، والتراب، والهوى، والنار. وهناك ينظر إلى عالم الملكوت فيشتاق إلى مرضاة الله تعالى.

وكان الشيخ أبو الحسن العزاز رحمه الله تعالى يقول: بُنِيَ هذا الأمر على ثلاثة أشياء: أن لا يأكل إلا عند الفاقة، ولا ينام إلا عند الغلبة، ولا يتكلم إلا عند الضرورة.

وكان ابن الحواري رحمه الله تعالى يقول: كل مريد لا يكون فيه ثلاث خصال فهو كذاب: ترك المال والطعام والمنام، فلا يأخذ من كل واحد إلا بقدر

الضرورة، وهناك يصلح لمجالسة الحق تعالى، فما كل ذاكر مجالس. انتهى.

فاعلم ذلك يا أخي والْزَمِ العزلة، فإنَّ فيها خير الدنيا والآخرة.

وقد روى الشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رجلاً قال: أي الناس أفضل يا رسول الله؟ قال: «مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله تعالى»، قال: ثم مَن؟ قال: «ثم رجل معتزل في شِعب من الشِعاب يعبد ربه ويدع الناس من شرّه»[1].

وكان السري رحمه الله تعالى يقول: من أراد أن يسلم له دينه وأن يستريح بدنه ويقل غمه فليعتزل الناس. ويؤيده حديث: «ليأتين على الناس زمان لا يسلم لذي دين دينه إلا من فرّ بدينه من قرية إلى قرية ومن شاهق إلى شاهق ومن حُجر إلى حُجر كالثعلب الذي يزوغ»[2].

وكان الشيخ أبو بكر الوراق رحمه الله تعالى يقول: ما ظهرت الفتنة من عهد السيد آدم عليه الصلاة والسلام إلى وقتنا هذا إلا من الخلطة، ومن جَانَبَ الناس كان إلى السلامة أقرب. وقد أجمعوا على أنه لا بد للمريد عن العزلة عن أبناء جنسه في البداية، ثم من الخلوة في وسط الطريق، ثم من الخلطة في النهاية.

وكان سيدي الشيخ محمد المنير رحمه الله تعالى يقول: قد غلط قوم فظنوا أن من اعتزل عن الناس خرجَ عن كون المؤمن إلف مألوف، والحالة أنها أولى

(1) رواه البخاري برقم (6129) [5/ 2381] باب العزلة راحة من خلاط السوء، ومسلم برقم (1888) [3/ 1503] باب فضل الجهاد والرباط.

(2) رواه البيهقي في كتاب الزهد الكبير، فصل في ترك الدنيا. . .، حديث رقم (439) [2/ 183]، ونصه كاملاً: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي على الناس زمان لا يسلم لذي دين دينه إلاّ من هرب بدينه من شاهق إلى شاهق ومن حجر إلى حجر، فإن كان ذلك كذلك لم تنل المعيشة إلاّ بسخط الله، فإذا كان كذلك كان هلاك الرجل على يدي زوجته وولده، فإن لم يكن له زوجة ولا ولد كان هلاكه على يدي أبويه، فإن لم يكن له أبوان كان هلاكه على يدي قرابته أو الجيران». قالوا: كيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «يعيرونه بضيق المعيشة فعند ذلك يورد نفسه الموارد التي يهلك فيها نفسه».

بمقام الإلفة لأنه إذا اعتزل الناس صفت نفسه واشتاقت الناس إلى رؤيته، فألِفُوه أكثر من المخالط، وأصل الائتلاف إنما هو بالروح لحديث: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»[1]. اهـ.

فعلم مما قررناه أنه لا يقال: العزلة أفضل مطلقاً، ولا الخلطة أفضل مطلقاً، لكن العارف أواخر عمره يحنُّ إلى الوحدة كالبداية فلا يصير له وقت يسع الناس كما وقع له ﷺ أواخر عمره حين أنزلت عليه سورة (النصر).

وسئل سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى عن الفرق بين العزلة والخلوة، فقال: الخلوة تكون عن الأغيار الذين يشغلون عن الله تعالى، والعزلة تكون عن النفس وما تدعو إليه. ويفرق أيضاً بأن العزلة ليس من لوازمها الاشتغال بالله تعالى بخلاف الخلوة. فاعلم ذلك يا أخي والزم الصمت إلا لضرورة شرعية. قال ﷺ: «من سره أن يسلم فليلزم الصمت»[2].

وكان الأستاذ القشيري رحمه الله تعالى يقول: إنما آثر القوم السكوت لما علموا أن الكلام من الآفات ثم لما فيه من حظ النفس وإظهار صفات المدح والميل إلى من يميز عن أشكاله بحسن النطق وغير هذا من آفات الكلام.

وكان الشيخ أبو بكر بن عياش رحمه الله تعالى يقول: كثرة الكلام تنشف الحسنات كما تنشف الأرض بعد الماء.

وكان الفضيل رحمه الله تعالى يقول: من عدَّ كلامه من عمله قلَّ كلامه، وما ورثوا الحكمة إلا بالصمت، والتفكُّر والورع في النطق أشد منه في اللقمة والثياب. اهـ.

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب الأرواح جنود مجندة، حديث رقم (3158) [3/ 1213]، ورواه مسلم في صحيحه، باب الأرواح جنود مجندة، حديث رقم (2638) [4/ 2031]، ورواه غيرهما.

(2) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، باب من اسمه إبراهيم، حديث رقم (1934) [2/ 264]، ورواه أبو يعلى في المسند، عن أنس، حديث رقم (3607) [6/ 290]، ورواه غيرهما.

وقد أجمعوا على أن الأنوار الربانية تخرج من قلب المريد إذا تكلم بلغو ويصير قلبه مظلماً، وأنه متى انهدم ركن من أركان الطريق تبعه الباقي. وذكروا أن معظم الأركان أربعة: الجوع، والسهر، والعزلة، والصمت، وما زاد على هذه فهو من التوابع. وأنشدوا:

بيت الولاية قسمت أركانه ساداتنا فيه من الأبدال
ما بين صمت واعتزال دائم والجوع والسهر النزيه الغالي[1]

فاعلم ذلك يا أخي ولا تتركِ قيام الليل فإنه نور للمؤمن في يوم القيامة يسعى من بين يديه ومن خلفه. وفي كلامهم: من طال وقوفه بين يدي الله تعالى في الظلام ثبّت الله تعالى قدميه على الصراط يوم تزلزل الأقدام.

وقد روى مسلم في «صحيحه»[2]: «أفضل الصلاة بعد المكتوبة الصلاة في جوف الليل».

وروى البيهقي[3] والنسائي[4]: «يحشر الناس في صعيد واحد يوم القيامة فينادي مناد فيقول: أين الذين كانوا تتجافى جنوبهم عن المضاجع؟ فيقومون ـ وهم قليل ـ فيدخلون الجنة بغير حساب، ثم يؤمر بسائر الناس إلى الحساب».

وروى الترمذي[5]: «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم وقربة إلى ربكم، ومكفرة السيئات ومنهاة عن الإثم».

وفي رواية للطبراني[6]: «ومطردة الداء عن الجسد».

---

(1) لم أقف على قائل هذه الأبيات.
(2) باب فضل صوم المحرم، حديث رقم (1163) [2/ 821].
(3) في شعب الإيمان، حديث رقم (3244) [3/ 169].
(4) لم أقف على رواية النسائي فيما لدي من مصادر ومراجع.
(5) في سننه، باب في دعاء النبي ﷺ، حديث رقم (3549) [5/ 552]، ورواه غيره.
(6) في الكبير، عن سلمان الفارسي، حديث رقم (6154) [6/ 258]، ونصه كاملاً: عن أبي العلاء، عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم ومقربة لكم إلى الله عزَّ وجلَّ، ومكفرة للسيئات، ومنهاة عن الإثم، ومطردة الداء عن الجسد».

وروى ابن أبي الدنيا والبيهقي[1]: «أشراف أمتي حملة القرآن وأصحاب الليل».

وروى الطبراني في «الكبير»: «من بات ليلة في خفة من الطعام والشراب يصلي تداركت حوله الحور العين حتى يصبح».

وكان سيدي أحمد بن الرفاعي رحمه الله تعالى يقول لأصحابه: عليكم بالقيام في الثلث الآخر من الليل ولا تفرطوا في ذلك، إنه ما من ليلة من ليالي السنة إلا وينزل فيها رزق من السماء فيفرق على المستيقظين ويحرم منه النائمون، وقد أوحى الله تعالى إلى السيد داود عليه الصلاة والسلام: يا داود كذب من ادّعى محبتي فإذا جنَّه الليل نام عني.

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يحث أصحابه كثيراً على نيّة قيام الليل ويقول: إن الشارع قد رتّب الثواب على النيّات لا على العمل، فمن عزم خيراً ولا يقسم له أعطاه الله تعالى أجر نيّته، فإنه قال في الحديث: «إنما لكل امرىء ما نوى»[2]، ولم يقل: لكل امرىء ما فعل. فَعُلم أن من واظب على ترك قيام الليل فليس له في طريق الصالحين نصيب. وتأمل يا أخي أن من يعكس في حضوره موكب السلطان كيف يقطعون جامكيته[3] تبصرة وذكرى لأولى الألباب.

فاعلم ذلك يا أخي ولا تترك قيام الليل، فقد ورد في الحديث: «إن أم السيد سليمان عليه الصلاة والسلام قالت: يا بني لا تترك قيام الليل فإن ترك قيام الليل يدع الرجل فقيراً يوم القيامة، وليكن ـ أي قيام الليل ـ في بيتك لما ورد: صَلِّ في زوايا بيتك يكن نور بيتك في السماء كنور الكواكب والنجوم لأهل الدنيا.

---

(1) في شعب الإيمان، فصل في تنوير موضع القرآن. . . ، حديث رقم (2703) [2/ 556].

(2) رواه البخاري في صحيحه في أبواب عدة منها: باب بدء الوحي، حديث رقم (1) [1/ 3]، ورواه أبو داود، باب فيما عنى به الطلاق والنيّات، حديث رقم (2201) [2/ 262] ورواه غيرهما.

(3) الراتب الشهري أو المكافأة المالية التي يأخذ الجندي والمدرِّس والعامل وغيرهم.

وفي «الصحيحين»[1]: أفضل الصلاة صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة.

وقال بعض السلف: إن فضل صلاة النافلة في البيت كفضل الفريضة في المسجد.

وعن أبي الجلد قال: لقي عيسى عليه الصلاة والسلام إبليس فقال له: يا إبليس أسألك بالحي القيوم ما الذي يسلُّ جسمك ويقطع ظهرك؟ فقال إبليس: يا نبي الله لولا أنك سألتني بالحي القيوم ما أخبرتك، أمّا الذي يسل جسمي فصهيل الخيل في سبيل الله تعالى، وأما الذي يقطع ظهري فصلاة الرجل الفريضة في مسجده والنافلة في بيته.

فاعلم ذلك يا أخي ولا تشرع في قيام الليل إلا بعد انقضاء النصف الأول من الليل، وذلك لأن نصب الموكب الإلٰهي لا يكون إلا بعد دخول النصف الثاني من الليل وهو أول وقوف كبراء الحضرة الإلٰهية. ومن الأدب أن لا يقف العبد بين يدي سيده إلا بعد وقوف من هو أكبر منه عادة وعلى ذلك أهل حضرة ملوك الدنيا فلا يقف الأدْوَنُ إلا بعد وقوف الأكبر.

وقد كان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى إذا جاء إلى الجامع لصلاة الصبح ولم ير في الجامع أحداً يقف على بابه خاضعاً ذليلاً ويقول: مثلي لا يدخل إلى حضرة سيده الخاصة إلا تبعاً لغيره.

تنبيه: ينبغي لمن ثقل عليه قيام الليل وترادف عليه الكسل أن يفتش نفسه، فربما يكون ذلك من وقوع في المعاصي الباطنية كرياء وكبر وعجب وحقد وحسب وحسد ومكر وحب محمدة ودنيا، وغير ذلك، فيبادر إلى التوبة من مثل ذلك، وإلا فعل الأمور المكفرة للذنوب، فإن الذنوب إذا كُفرت عن العبد فقد طَهُرت ذاته، وما بقي مانع من الوقوف بين يدي ربها في تلك المواكب الشريفة إلا عدم القسمة.

(1) البخاري ومسلم: البخاري برقم (698) ـ (5762) [6860]، ومسلم برقم (781). وروى الحديث غيرهما.

وكان سيدي أفضل الدين رحمه الله تعالى ونفعنا ببركته إذا وجد في قلبه شيئاً من الأمراض الباطنية يترك قيام الليل ويقول: أستحيي أن أقف بذاتي المتلطخة بالقذر بين أصفياء الله تعالى. وكان بعضهم إذا نام عن حضور الموكب الإلٰهي في ليلة من الليالي يقول: لك الفضل يا رب الذي لم توقف هذه الذات النجسة القذرة بين أهل حضرتك الطاهرين المطهرين.

قلت: وهذا وإن كان فيه خير كثير من جهة هضم النفس، فينبغي للعبد أن يندم ويحزن على فوات حظه من الوقوف بين يدي ربه تعالى في تلك المواكب الشريفة وقت تفرق الغنائم.

فاعلم ذلك يا أخي ولا تترك أيضاً صلاة الجماعة، فقد قالوا: ما اجتمعوا جماعة إلا وفيهم ولي لله تعالى يشفعه الله تعالى في رفقته.

وثبت في «صحيح مسلم»[1] عن أبي هريرة: أن رجلاً أعمى أتى إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله ليس لي قائد يقودني إلى المسجد فهل لي رخصة أن أصلي في بيتي؟ فرخص له، فلما ولى دعاه فقال: «هل تسمع النداء بالصلاة؟» قال: نعم، قال: «فأجب».

وقد كان السلف يعدون فوات صلاة الجماعة مصيبة، وقد وقع أن بعضهم خرج إلى حائط له ـ يعني حديقة نخل ـ فرجع وقد صلى الناس صلاة العصر فقال: إنّا لله فاتتني صلاة الجماعة، أشهدكم على أن حائطي عليَّ للمساكين صدقة.

وفاتت عبد الله بن عمر رضي الله عنهما صلاة العشاء في الجماعة، فصلى تلك الليلة حتى طلع الفجر جبراً لما فاته من صلاة العشاء في الجماعة.

وعن عبيد الله بن عمر القواريري رحمه الله تعالى قال: لم تكن تفوتني صلاة في الجماعة، فنزل بي ضيف فَشَطَطْتُ[2] بسببه عن صلاة العشاء في

(1) باب يجب إتيان المسجد على من سمع النداء، حديث رقم (653)، وروى الحديث غير مسلم.

(2) شطَّتِ الدار: بَعُدت. وأَشَطَّ في القضية أي: جار. وأَشَطَّ في السوم: أبعد. وشططت عليه: أي جرت.

المسجد، فخرجت أطلب المسجد لأصلي فيه مع الناس فإذا المساجد كلها قد صلى أهلها وغلقت، فرجعت إلى بيتي وأنا حزين على فوات صلاة الجماعة فقلت: ورد في الحديث: «إن صلاة الجماعة تزيد على صلاة الفذ سبعاً وعشرين»[1]، فصليت العشاء سبعاً وعشرين مرة ثم نمت فرأيتني في المنام على فرس مع قوم على خيل وهم أمامي وأنا أركض فرسي خلفهم فلا ألحقهم، فالتفت إليَّ واحد منهم وقال: تتعب فرسك فلست تلحقنا، فقلت: ولِمَ يا أخي؟ قال: لأنَّا صلينا العشاء في الجماعة وأنت قد صليت وحدك. فاستيقظت وأنا مهموم حزين.

وقال بعض السلف: ما فاتت أحداً صلاة الجماعة إلا بذنب أصابه، وقد كانوا يعزون أنفسهم سبعة أيام إذا فاتت أحدهم صلاة الجماعة، وقيل ركعة، ويعزون أنفسهم ثلاثة أيام إذا فاتتهم التكبيرة الأولى مع الإمام.

فاعلم ذلك يا أخي وتباعد عن الوقوع في مظالم العباد مطلقاً لأنه ديوان لا يتركه الله تعالى. وأما ظلم العبد لنفسه بارتكاب المعاصي دون الشرك بالله تعالى وإن كان هو يرجع إلى ظلم النفس أيضاً، فإنه ديوان لا يعبأ الحق تعالى به يغفر التوبة.

قال سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى: مظالم العباد على ثلاثة أقسام: قسم يتعلق بالنفوس، وقسم يتعلق بالأموال، وقسم يتعلق بالأعراض.

فأما النفوس: فلها أحكام عديدة في مثل قتل العمد والخطأ ووجوب القود والدية والكفارة وغير ذلك مما هو مذكور في كتب الفقه.

وأما الأموال: فإنه لا بد من ردها إلى المظلوم أو وارثه، وإن تعذر ذلك لم يبق غير التصدق بها عن صاحبها على مذهب من يرى ذلك، فإن عجز عن رد المظالم فليستكثر من الحسنات التي يُوفَّى منها الغرماء عند الميزان وإلا فليتأهب

---

(1) رواه النسائي في السنن الكبرى، فضل الجماعة، حديث رقم (913) [1/ 295]، ورواه ابن حبان في صحيحه، ذكر ما فضل صلاة الجماعة على صلاة المرء منفرداً، حديث رقم (2053) [5/ 403] ورواه غيرهما.

لتحمل أثقال المظلوم وأوزاره يوم القيامة كما ورد في «الصحيح»: أن من كانت له حسنات أخذ من حسناته وأعطى المظلوم، ومن لم يكن له حسنات طرح عليه من سيئات المظلوم وكتب له كتاب إلى النار.

وأما **الأعراض**: فقد ذكر بعض محققي الأئمة فيها تفصيلاً حسناً لعله أحوط الوجوه في هذا الباب، وهو: أن تلك المظلمة إن كانت غيبة أو نميمة فلا يخلو الأمر فيها من أحد حالين: إما أن تكون قد بلغت المظلوم أو لم تبلغه. فإن بلغت تعين التحلل منها، وإن لم تبلغه كان تبليغها له أذىً جديداً فيورث من الحقد وانقطاع المودة ونحو ذلك ما هو أصعب من تلك المظلمة، فالطريق في ذلك كثرة الاستغفار له دون تبليغه وطلب التحلل منه.

ثم لا يخفى عليك يا أخي أن من الذنوب ما يشتبه أمره من جهة كونه من مظالم النفس أو مظالم العباد، وكالزنا واللواط مثلاً، فإن الأمر في ذلك يحتاج إلى تفصيل ليظهر بواسطة وجه الصواب، وهو أن يقال: إن كان المفعول به مبذولاً كانت تلك المظلمة من مظالم النفس، وإن كان الفاعل قد راوده وعاوده كان ذلك من مظالم العباد الصعبة لأنه آذى تلك الصورة وقهرها وجرها إلى المعصية. ومن سنّ سنّة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة. وأيضاً فإنه هتك عرضها وأذى أهلها وحملهم العار وغير ذلك.

تنبيه: الأعراض أشد من الأموال. قال العلماء: لو أن شخصاً أخذ مال شخص ثم تورع فجاء به بعد موته إلى ورثته وإلى جميع أهل الأرض فجعلوه في حل ما كان في حل، فعرض المؤمن أشد من ماله.

ومن كلام الشيخ أبي المواهب الشاذلي رحمه الله تعالى: مما يوقف المريد عن الترقي وقوعه في غيبة أحد من المسلمين، ومن ابتلى بوقوعه في ذلك فليقرأ الفاتحة وسورة الإخلاص والمعوذتين ويجعل ثوابهن في صحائف ذلك الشخص، فإني رأيت رسول الله ﷺ في المنام وأخبرني بذلك وقال: «إن الغيبة والثواب يقفان بين يدي الله تعالى وأرجو أن يتوازنا».

فاعلم ذلك يا أخي وأكثر من الاستغفار تبعاً للقرآن العظيم. وفي الحديث

من رواية «البخاري»[1]: «إني لأستغفر الله تعالى وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة».

ولمسلم[2]: «وإنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة».

ولابن حبان[3]: «إنا كنا لنعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد: رب اغفر وتب عليَّ إنك التواب الرحيم، مائة مرة».

وفي وصية سيدي أبي الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى: عليك بالاستغفار وإن لم يكن هناك ذنب، واعتبر باستغفار المعصوم الأكبر ﷺ بعد البشارة واليقين بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

وينبغي كثرة الاستغفار عند أول الليل وآخره، وأول النهار وآخره، لحديث ابن ماجه[4]: «ما من حافظين يرفعان إلى الله تعالى في يوم صحيفة فيرى في أول الصحيفة وفي آخرها استغفاراً إلا قال الله تعالى: قد غفرت لعبدي ما بين طرفي الصحيفة. فطوبى لمن وجد في صحيفته استغفاراً كثيراً».

وعند توقف الرزق لحديث ابن حبان: «من لزم الاستغفار جعل الله له في كل ضيق مخرجاً ومن كل هم فرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب»[5].

وعند وقوع الذنب، لما روى الحاكم في «صحيحه»[6]: «ما من مسلم يعمل ذنباً إلا وقف الملك الموكل بإحصاء ذنوبه ثلاث ساعات، فإن استغفر الله تعالى في شيء من تلك الساعات لم يوقعه عليه ولم يعذب عليه يوم القيامة».

(1) في الصحيح، باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة، حديث رقم (5948) [5/ 2324] ورواه غيره.
(2) في صحيحه، باب استحباب الاستغفار. . .، حديث رقم (2702) [4/ 2075]، ورواه غيره.
(3) في صحيحه، ذكر وصف الاستغفار الذي كان. . .، حديث رقم (927) [3/ 206] ورواه غيره.
(4) في سننه، باب الاستغفار، حديث رقم (3818) [2/ 1254] ورواه غيره.
(5) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب التوبة والإنابة، حديث رقم (7677) [4/ 291] ورواه غيره.
(6) كتاب التوبة والإنابة، حديث رقم (7675) [4/ 291].

وعند ختام جميع الأعمال فقد أجمع العارفون على استحباب ختام جميع الأعمال بالاستغفار. وفي الحديث: أنه كان ﷺ يستغفر الله تعالى عقب كل مكتوبة ثلاث مرات تشريعاً لأمته وتنبيهاً لهم على نقص طاعتهم.

فعلم أنه ينبغي للعبد أن يكثر من الاستغفار ليلاً ونهاراً سواء تذكر ذنوباً معينة أو لم يتذكر، وبذلك يأمن العبد من نزول البلاء عليه لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: الآية 33].

تنبيه: يتأكد على العبد كثرة الاستغفار كلما اعتقد الناس فيه الخير وهو في الباطن على خلاف ذلك، وما دام للعبد سريرة يفتضح بها في الدنيا والآخرة، فاللائق به كثرة الاستغفار والخوف لتلبيسه على الناس وقد قالوا: أشر الناس من يظن الناس فيه الخير وهو في الباطن على خلاف ذلك، فإذا تخلق بما ظنه الناس فيه كان له حكم آخر، فإن من شرط الكامل أن يشهد كماله ونقصه معاً ليعطين كلاً منهما حقه من الشكر والاستغفار، وما دام ناقصاً وتحت حكم ما تشهده من نقص أو كمال في حالين مختلفين لأنه صاحب عين واحدة بخلاف الكامل، فإنه صاحب عينين أو عين لا تزاحم عين صاحبتها، وقل من يتفقد نفسه في ذلك، والغالب على الناس محبتهم لكثرة اعتقاد الناس فيهم فوق ما يستحقونه ولا يكاد أحدهم يستغفر من ذلك.

فاعلم ذلك يا أخي والزم الحياء، أي الحياء الشرعي فإنه من الإيمان، وقد قالوا: العبادة اثنان وسبعون باباً، أحد وسبعون في الحياء من الله تعالى، وواحد في جميع أنواع البر. وفي الحديث: «استحيوا من الله تعالى حق الحياء»، قالوا: إنا نستحيي يا رسول الله والحمد لله، قال: «ليس ذلك ولكن من استحيا من الله تعالى فليحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى، وليذكر الموت والبِلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله تعالى حق الحياء»[1].

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الرقاق، حديث رقم (7915) [4/ 359]، ورواه الترمذي في صحيحه، باب 24، حديث رقم (2458) [4/ 637] ورواه غيرهما.

وكان الفضيل رحمه الله تعالى يقول: خمس من علامات الشقاء: القسوة في القلب، وجمود العين، وقلة الحياء، والرغبة في الدنيا، وطول الأمل.

وكان السري رحمه الله تعالى يقول: إن الحياء والأنس يطرقان القلب فإن وجدا فيه الزهد والورع حطّا وإلا رحلا. وعلامة المستحي عدم وقوعه في الذنب.

قلت: لعل المراد بعدم الوقوع: عدم الإصرار.

وقد سئل سيدي علي المرصفي رحمه الله تعالى عن معنى قولهم: لا يكون المريد مستقيماً في التوبة حتى لا يكتب عليه ملك الشمال ذنباً عشرين سنة. هل المراد أنه لا يقع في معصية أصلاً أم المراد أنه لا يصر بل يتوب ويستغفر على الفور؟ فقال: المراد الثاني، لأن المريد الصادق إذا وقع في الذنب بادر إلى التوبة والاستغفار، فانمحى عنه ذلك الذنب على الأثر، فلا يجد الملك شيئاً يكتبه لأنه يمكث أكثر من ساعة لعل العبد يتوب ويستغفر، فإذا ندم العبد واستغفر، ترك الملك كتابة الذنب. انتهى.

ثم لا يخفى أن الملكين لا يكتبان إلا المعاصي القولية والفعلية إذا تلفظ بها صاحبها، وقال: فعلت كذا وكذا، لقوله تعالى فيها: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: الآيتان 11 ـ 12] والعلم غير الكتابة، فافهم.

والزم أيضاً يا أخي الأدب، فقد قالوا: لا ينبغي للرجل أن يطلب العلم والحديث حتى يعمل في الأدب عشرين سنة.

وقالوا: كاد الأدب أن يكون ثلثي الدين.

وقالوا: القرآن الكريم شيئان: مراعاة أدب العبودية، وتعظيم حقوق الربوبية.

وقالوا: من ترخص في الأدب رجع من حيث جاء.

وقالوا: من لا أدب له فلا شريعة له ولا إيمان ولا توحيد.

وقالوا: العبد يصل بعبادته إلى الجنة ولا يصل إلى حضرة الله تعالى إلا بالأدب في العبادة، ومن لم يراع الأدب في طاعته فهو محجوب عن ربه تعالى.

وقالوا: ترك الأدب موجب للطرد، فمن أساء الأدب على البساط رُد إلى الباب، ومن أساء الأدب على الباب رد إلى سياسة الدواب.

وقالوا: ما وصل أولياء الله تعالى إلى ما وصلوا بكثرة الأعمال، وإنما وصلوا بالأدب وحسن الخلق.

فاعلم ذلك يا أخي ولا تغفل عن ذكر الله تعالى، فقد قالوا: من نسي الله تعالى فقد كفر به.

وقالوا: كل من تساهل بالغفلة ولم تكن عليه أشد من ضرب السيوف فهو كاذب لا يجيء منه شيء في الطريق.

وقالوا: إذا ترك العارف الذكر نَفَساً أو نفسين قيض الله تعالى له شيطاناً فهو له قرين، وأما غير العارف فيسامح بمثل ذلك، ولا يؤاخذ إلا في مثل درجة أو درجتين أو زمن أو زمنين، أو ساعة أو ساعتين، على حسب المراتب.

وقد روى الشيخان[1]: قال الله تعالى: «أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إن ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير من ملئه».

وروى ابن حبان[2]: «أَكْثِروا ذكر الله تعالى حتى يقولوا مجنون».

وروى مسلم والنسائي والبزار: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند

(1) البخاري في صحيحه، باب ما يذكر في الذات والنعوت. . . ، حديث رقم (6970) [6/ 2694]، ومسلم في صحيحه، باب الحث على ذكر الله تعالى، حديث رقم (2675) [4/ 2061].

(2) في صحيحه، باب ذكر استحباب الاستهتار للمرء بذكر ربه جلَّ وعلا، حديث رقم (817) [3/ 99]، ورواه الحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء. . . ، حديث رقم (1839) [1/ 677] ورواه غيرهما.

مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى، قال: ذكر الله عز وجل»[1].

وروى الطبراني[2]: «ليس تتحسر أهل الجنة إلا على ساعة مرت بهم ولم يذكروا الله تعالى فيها».

وروى أيضاً: «من لم يذكر الله تعالى فقد بريء من الإيمان»[3].

وروى أيضاً: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر مثل الحي والميت»[4].

وروى أيضاً: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم إنك إذا ذكرتني شكرتني، وإذا نسيتني كفرتني»[5]. قالوا: وهذا النسيان يطلق على نسيان غفلة الجهل بالله تعالى والإشراك به، وعلى نسيان غفلة الإعراض عن الله تعالى وطريقه وكلاهما مذوم.

وروى الترمذي[6]: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا»، قالوا: يا رسول الله وما رياض الجنة؟ قال: «حلق الذكر».

وروى أيضاً: «من صلى الصبح في جماعة ثم قعد يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس، ثم صلى ركعتين كانت له كأجر حجة وعمرة تامة تامة»[7].

---

(1) ورواه الحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء والتكبير. . .، حديث رقم (1825) [1/ 673]، ورواه الترمذي في سننه، باب منه (فضل الذكر)، حديث رقم (37) [5/ 459].

(2) في الكبير عن معاذ بن جبل، برقم (182) [20/ 93].

(3) أورده أبو الفرج البغدادي في جامع العلوم والحكم [1/ 445]، والهيثمي في مجمع الزوائد، باب فيمن لم يكثر ذكر الله تعالى، عن أبي هريرة [10/ 79].

(4) رواه مسلم بلفظ: «مثل البيت الذي يُذكر الله فيه، والبيت الذي لا يذكر الله فيه، مثل الحيِّ والميِّت».

(5) رواه الطبراني في الأوسط، مَن اسمه محمد، حديث رقم (7265) [7/ 200].

(6) في سننه، باب (83)، حديث رقم (3509) [5/ 532] ورواه الحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء والتكبير. . .، حديث رقم (1820) [1/ 671].

(7) في سننه، باب ذكر ما يستحب من الجلوس في المسجد. . .، حديث رقم (586) [2/ 481].

وروى البزار: «ذاكر الله تعالى في الغافلين بمنزلة الصابر في الفائزين»[1].

وروى أيضاً: «ما من قوم جلسوا مجلساً وتفرقوا منه ولم يذكروا الله تعالى فيه إلا كأنما تفرقوا عن جيفة حمار وكان عليهم حسرة يوم القيامة»[2].

وروى ابن أبي شيبة[3]: «ما من آدمي إلا ولقلبه بيتان في أحدهما المَلَك وفي الآخر الشيطان، فإذا ذكر الله تعالى خنس، وإذا لم يذكر الله تعالى وضع الشيطان منقاره في قلبه ووسوس له».

وروى ابن حبان[4]: «سيعلم أهل الجمع من أهل الكرم، قيل: ومن أهل الكرم؟ قال: أهل مجالسة الذكر».

وروى أبو داود[5]: «لأن أقعد مع قوم يذكرون الله تعالى من صلاة الغداة حتى تطلع الشمس أحب إليَّ من أن أعتق أربعة من ولد إسماعيل».

وروى الإمام أحمد[6]: «غنيمة مجالس الذكر الجنة».

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام رحمه الله تعالى: وهذا الحديث وأمثاله يلحق بدرجة الأمر، لأن كل فعل مدحه الشارح أو مدح فاعله لأجله أو وعد عليه بخير عاجل أو آجل، فهو مأمور به، لكنه تردد بين الإيجاب والندب. انتهى.

---

(1) رواه الطبراني في الكبير والأوسط، والبزار. (انظر: الهيثمي في مجمع الزوائد، باب ذكر الله تعالى في الغافلين [10/ 80].

(2) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء والتكبير...، حديث رقم (1808) [1/ 668]، ورواه ابن حبان في صحيحه، ذكر البيان بأن تفرُّق القوم عن المجلس من غير ذكر الله...، حديث رقم (590) [2/ 351] ورواه غيرهما.

(3) في المصنف برقم (34774) [7/ 135] ورواه غيره.

(4) في الصحيح، ذكر ما يكرم الله جلَّ وعلا به في القيامة...، حديث رقم (816) [3/ 98].

(5) في سننه، باب في القصص، حديث رقم (3667) [3/ 324]، ورواه الطبراني في الأوسط، من اسمه محمد، حديث رقم (6022) [6/ 137].

(6) في المسند عن عبد الله بن عمرو، برقم (6651) [2/ 177] وبرقم (6777) [2/ 190].

والأحاديث في فضل الذكر كثيرة.

فاعلم ذلك يا أخي ولا تترك الذكر ولو مع الغفلة.

قال الإمام سهل رحمه الله تعالى: سيروا إلى الله تعالى عُرْجاً ومكاسيرَ، ولا تنتظروا الصحة، فإن انتظار الصحة بطالة.

وقال صاحب الحِكَم: «لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله تعالى فيه لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك مع وجود ذكره، وعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة. ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور، ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع غيبة عما سوى المذكور، وما ذلك على الله بعزيز».

فاعلم ذلك يا أخي ولا تترك الذكر فإنه عمدة الطريق وأكبر من الصلاة.

قال الأستاذ أبو علي الدقاق رحمه الله تعالى: الذكر ركن قوي في طريق الله تعالى، بل هو العمدة في هذا الطريق ولا يصل أحد إلى الله تعالى إلا بدوام الذكر.

وقال الشيخ أبو المواهب الشاذلي رحمه الله تعالى: إنما كان ذكر الله أكبر من الصلاة لأن الصلاة وإن كانت عظيمة فقد لا تجوز في بعض الأوقات، بخلاف الذكر، فإنه مستدام في عموم الحالات.

وقال أيضاً: اختلفوا أيما أفضل الذكر سراً أو جهراً؟

والذي أقول به: إن الذكر جهراً أفضل لمن غلبت عليه القوة من أهل البداية، والذكر سراً أفضل لمن غلبت عليه الجمعية من أهل النهاية.

وقال أيضاً: أفضل صيغ الذكر للمريد قول: لا إلٰه إلا الله، ما دام له هوى، فإذا فنيت أهويته كان ذكر الجلالة أنفع له لأن ما ثم هناك ما يغني حقيقة فافهم. واعلم أن الذكر منسوب الولاية، أي مرسوم من الله تعالى للعبد، كمراسيم ملوك الدنيا بالوظائف، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: الآية 60] فمن وفق

لدوام ذكر الله تعالى فقد أعطي المرسوم بأنه ولي الله تعالى، ومن سُلب ذلك فقد عزل عن الولاية، فافهم.

واعلم أن الذكر أسرع في الفتح من سائر العبادات.

قال سيدي علي المرصفي رحمه الله تعالى: قد عجز الأشياخ فلم يجدوا للمريد دواء أسرع في جلاء قلبه من مداومة الذكر، فحكم الذكر في الجلاء للقلب كحكم الحصى في النحاس، وحكم غير الذكر من سائر العبادات كحكم الصابون في النحاس، وذلك يحتاج إلى طول زمن.

وقال أيضاً: السالك من طريق الذكر كالطائر المجد إلى حضرات القرب، والسالك من غير طريق الذكر كالزمن الذي يزحف تارة ويسكن أخرى مع بعد المقصد، فربما قطع مثل هذا عمره كله ولم يصل إلى مقصده. وأجمعوا على أن الفتح في الليل أقرب منه في النهار، وقالوا: كل من لم يذكر الله تعالى من غروب الشمس إلى الصباح في مجلس واحد ما عدا وقت الصلاة فلا يجيء منه في الطريق.

وقالوا: مَن لم يحصل له من الذكر حال قويٌّ وحضور مع الله تعالى فليس له قطع المجلس، فافهم.

واعلم أنه لا يصل أحد إلى الحضرة الإلٰهية إلا به، أي بالذكر.

قال سيدي أبو مدين التلمساني رحمه الله تعالى: من دامت أذكاره صفت أسراره، ومن صفت أسراره كان في حضرة الله تعالى قراره. وإيضاح ذلك أن الحق تعالى لا يقرب إلى حضرته إلا من استحيا منه حق الحياء، ولا يصح لأحد أن يستحيي كذلك إلا إن حصل له الكشف ورفع الحجاب، ولا يصح له الكشف ورفع الحجاب إلا بملازمة الذكر، وهذه طريق يصل بها المريد بسرعة. انتهى.

والمراد بحضرة الله تعالى حيث أطلقت في لسان القوم شهود العبد أنه بين يدي الله تعالى، فما دام هذا مشهده فهو في حضرة الله تعالى، فإذا حجب عن

هذا المشهد فقد خرج منها فافهم. واعلم أنه لا يُحصِّل أحد الكشف والإخلاص الكامل إلا به، أي الذكر، وقد تقدم أن الكشف لا يحصل إلا به.

والكشف على نوعين: حسي وخيالي.

فالخيالي: أن يغمض العبد عينيه عند رؤية شخص أو رؤية فعل، فإن بقي له الكشف فهو خيالي، وإن زال فليعلم أن الإدراك قد تعلق بما كان مخصوص. ومن كشف له عما يفعله الناس في قعور بيوتهم فهو كشف شيطاني يجب عليه التوبة منه فوراً. وإيضاح قولهم: الكامل لا كشف له، أي لأنه مشغول بأداء أوامر ربه تعالى التي عليه في كل نَفَس فلا تدعه الأوامر المتوجهة إليه يتفرغ لغيرها، وأما كون الإخلاص الكامل لا يحصل إلا بالذكر فهو كذلك، وقد رووه في رسائلهم فقالوا: إن أول ما يستجلى للعبد إذا اشتغل بالذكر: توحيد الفعل لله تعالى، وتوحيد الملك لله تعالى، وتوحيد الوجود لله تعالى. فإذا تجلى له توحيد الفعل لله خرج كشفاً ويقيناً عن شهود كون الفعل له وخرج به أيضاً عن طلب الثواب عليه وعن الكبر والعجب والرياء به، ودخل في فضاء الإخلاص الكامل فافهم، وأكثر من ذكر الله تعالى فإن به تنزل الرحمة لحديث الطبراني[1]: «لا يقعد قوم يذكرون الله تعالى إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله تعالى فيمن عنده». وقالوا: أول ما تنزل الرحمة على مجالس الذكر، فافهم.

واعلم أن بذكر الله تعالى يزول الغم الواقع للناس في هذه الدار، فإن الهم والغم فيها إنما هو بقدر الغفلة عن الله تعالى، فمن أراد دوام السرور فليداوم على الذكر فلا يلومن العبد إلا نفسه إذا ترادفت عليه الهموم والغموم فإن ذلك إنما هو جزاء بقدر إعراضه عن ربه عز وجل، فافهم.

واعلم أن بذكر الله تعالى تذهب القسوة عن القلب.

---

(1) وحديث الإمام مسلم الذي رواه في صحيحه، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، حديث رقم (2700) [4/ 2074] والحديث رواه غيرهما.

قال الحكيم أبو محمد الترمذي رحمه الله تعالى: ذكر الله تعالى يرطب القلب ويلينه، فإذا خلا عن الذكر أصابته حرارة النفس ونار الشهوة فقسى ويبس وامتنعت الأعضاء عن الطاعة. فافهم.

واعلم أن بمداومة ذكر الله تعالى تخمد الأمراض الباطنة من كبر وعجب ورياء وحسد وسوء ظن وحقد وغل ومكر وحب محمدة، وغير ذلك، فافهم.

واعلم أن بمداومة ذكر الله تعالى تنقطع الخواطر الشيطانية. والفرق بينها وبين الخواطر النفسانية: أن خاطر الشيطان أكثره يدعو إلى المعاصي، وخاطر النفس أكثره يدعو إلى اتباع الشهوة. وفرقوا بينهما أيضاً بأن النفس إذا طالبتك بشيء ألحّت فلا تزال ولا ترجع ولو بعد حين حتى تصل إلى مرادها إلا أن يدوم صدق المجاهدة. وأما الشيطان إذا دعاك إلى ذلك فخالفته فاته ذلك، ويوسوس بزلة أخرى، لأن جميع المخالفات عنده سواء. اهـ.

ومعنى الخاطر: خطاب يرد على الضمائر.

واعلم أن بذكر الله تعالى تدفع الآفات.

قال الإمام ذو النون المصري رحمه الله تعالى: من ذكر الله تعالى حفظه من كل شيء.

وقالوا: الذكر سيف المريدين به يقاتلون أعداءهم من الجن والإنس وبه يدفعون الآفات التي تطرقهم.

وقالوا: إن البلاء إذا نزل على قوم وفيهم ذاكر حاد عنه البلاء.

وقالوا: إن الذكر إذا تمكن من القلب صار الشيطان يصرع إذا دنا من الذاكر كما يصرع الإنسان إذا دنا منه الشيطان، فتجتمع عليه الشياطين فيقولون: ما باله؟ فيقال: إنه دنا من ذاكر فصُرع.

فاعلم ذلك يا أخي وأكثر من ذكر الله تعالى فإن به يمنع الشياطين من ركوبنا.

قال سيدي الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى: إن الشيطان يركب أحدَنا كلما غفل عن ذكر الله تعالى، فإنه دائماً واقف تجاه قلب العبد، فكلما غفل عن ذكر الله تعالى استحوذ عليه، وكلما ذكر الله تعالى نزل عنه. فلو كشف لأحدنا لرأى إبليس يركبه كما يركب أحدنا الحمارة ويصرفها كيف شاء طول الليل والنهار، كلما غفل، وينزل عنه كلما ذكر الله تعالى.

وأجمع القوم على: أن الذكر مفتاح الغيب وجازٍ بالخير، وأنيس المستوحش، وجامع لشتات صاحبه، وإذا غلب على الذاكر امتزج بروح الذاكر حبُّ اسم المذكور حتى أن بعض الذاكرين وقع على رأسه حجر فقطر الدم على الأرض واكتتب: الله الله، فلو لم يكن من شرف الذكر إلا أنه لا يوقت بوقت لكان ذلك كفاية في شرفه. وأجمعوا على أنه لا ينبغي تركه ولو مع الغفلة. فافهم.

واعلم أن فوائد الذكر لا تنحصر لأن الذاكر يصير جليس الحق تعالى من الأسرار والعلوم كلما ذكر لأنها حضرة لا يرد عليها أحد ويفارقها بغير مدد لكن مع الحضور، فيقال لمن ادَّعى أنه حضر بقلبه في ذكره مع ربه تعالى: ماذا أتحفك وأعطاك في هذا المجلس؟ فإن قال: ما أعطاني شيئاً، قلنا له: وأنت الآخر لم تحضر معه في ذكره. فاتخذ لك شيخاً يزيل عنك الموانع المانعة لك عن الحضور، فإن لم يجد له شيخاً، قلنا له: أكثر من ذكر الله تعالى باللفظ حتى يصير الحق تعالى مشهودك، وهناك يصح الفتح، لأن الذكر لله تعالى حقيقة هو استصحاب شهود العبد أنه بين يدي ربه تعالى، والذكر باللسان إنما هو وسيلة إليه، فإذا حصل له الشهود استغنى عن ذكر اللسان، فلا يذكر باللسان إلا في محل يقتدى به فيه لا غير، لأن حضرة شهود الحق تعالى حضرة بهت وخرس يستغني صاحبها عن الذكر إذ هو بمنزلة الدليل، فإذا حصلت الجمعية بالمدلول استغنى العبد عن الدليل، فاعلم ذلك فإنه نفيس.

ولما ذكر شيئاً من فضائل الذكر، أخذ يتكلم على شيء من واجباته فقال:

ولا تشرك معه، أي مع الذكر، غيره، فقد أجمعوا على أن كل شيء أشركه المريد مع الذكر قطعه عن سرعة السير وأبطأ فتحه بقدره كثرةً وقلةً.

وقالوا: يجب على الشيخ أن يأمر المريد أن يذكر الله تعالى بلسانه بشدة وعزم، فإذا تمكن من ذلك يأمره أن يسوي في الذكر بين قلبه ولسانه، ويقول له: اثبت على استدامة هذا الذكر كأنك بين يدي ربك تعالى أبداً بقلبك، ولا تترك الذكر حتى يحصل لك منه حال، وتصير أعضاؤك كلها ذاكرة لا تقبل الغفلة عن الله تعالى، ولا تزد على الفرائض والسنن المؤكدة، ولا تشتغل بقراءة القرآن الكريم ولا بغيره، فإن ذلك إنما هو وِرْدُ الكُمَّل الذين عرفوا عظمة الحق تعالى.

ثم بعد أن يلقنه الذكر يأمره بالجوع على التدريج شيئاً فشيئاً لئلا تقل قواه فينقطع عن الذكر، ويأمره أيضاً بقلة اللغو والنوم وباعتزال الناس، فإنه لا بد مع الاشتغال بالتوحيد من ذلك، وإلا فكل شيء حصل من نور التوحيد تطفئه ظلمة الأكل واللغو كما هو مقرر في أركان الطريق. وقد عجز الأشياخ على أن يوصِّلوا مريداً مع إخلاله بالأركان فلم يقدروا.

وقوله: وليكن، أي الذكر جهراً فإن الذكر جهراً، أنفع لمن غلبت عليه الجمعية. وقد أجمعوا أنه يجب على المريد الجهر بالذكر وأن ذكر السر والهوين لا يفيده رقياً وينبغي أن يكون الجهر برفق فإنه إذا كان بغير رفق ربما يتربى له فتاق في بطنه فيتعطل جهره.

وقوله: بقوة، أي يجب على المريد أن يذكر بقوة. فقد قالوا: إذا ذكر المريد ربه بشدة وعزم طويت له مقامات الطريق بسرعة من غير بطء، فربما قطع في ساعة ما لا يقطعه غيره في شهر وأكثر.

وقالوا: يجب على المريد أن يذكر بقوة تامة بحيث لا يبقى فيه متسع ويهتز من فوق رأسه إلى إصبع قدمه، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البَقَرَة: الآية 74]. فكما أن الحجر لا ينكسر إلا بقوة كذلك الذكر لا يؤثر في جميع شتات قلب صاحبه إلا بقوة.

وقوله: في جماعة، أي يجب أن يكون الذكر في جماعة، لأن الذكر في الجماعة أكثر تأثيراً في رفع الحجب.

وقد أجمع العلماء سلفاً وخلفاً على استحباب ذكر الله تعالى في المساجد وغيرها من غير نكير بشرطه. وقد شبه الإمام الغزالي رحمه الله تعالى ذكر الإنسان وحده وذكر الجماعة بأذان المنفرد وأذان الجماعة، قال: فكما أن أصوات المؤذنين جماعة تقطع جرم الهواء أكثر من صوت مؤذن واحد، كذلك ذكر الجماعة على قلب واحد أكثر تأثيراً في رفع الحجب، وكون الحق تعالى شبه القلوب بالحجارة، ومعلوم أن الحجر لا ينكسر إلا بقوة جماعة مجتمعين على قلب واحد، لأن قوة الجماعة أشد من قوة شخص واحد.

فإن قيل: أفضل ذكر: لا إلٰه إلا الله، أو زيادة محمد رسول الله؟

فالجواب: الأفضل في ذكر السالكين: لا إلٰه إلا الله دون غيرها، حتى تحصل لهم الجمعية مع الله تعالى بقلوبهم، فإذا حصلت فالأمر ظاهر، وإيضاح ذلك أن محمداً رسول الله إقرار، والإقرار يكفي في العمر مرة واحدة.

والمقصود من تكرار التوحيد: كثرة الجلاء لحجب النفس.

قوله: مع التعظيم، أي: يجب على الذاكر أن يستحضر عظمة الحق تبارك وتعالى قبل الشروع في الذكر.

قال الشيخ أبو بكر الكناني رحمه الله تعالى: من شرط الذاكر أن يصحبه الإجلال والتعظيم له، وإلا لم يفلح صاحبه في مقامات الرجال. وكان يقول: والله لولا أنه تعالى فرض عليَّ ذكره لما تجرأت أن أذكره إجلالاً له، مثلي يذكر الحق تعالى ولم يغسل فمه بألف توبة مما سواه قبل ذكره. انتهى.

وأجمعوا على أن من لم يتحقق بآداب الذكر، وهي عشرون أدباً، فبعيد عليه الفتح. ومن واجبات الذكر التوبة من كل ما لا يعني قبل الشروع فيه، وكثرة الشكر بعده وعدم الشرب عقبه، وعدم الاشتغال بجميع حقوق الخلق إلا ما كان

عوناً على السير.

وهذا آخر ما يسَّر الله تعالى بجمعه على الوصيّة السنيّة.

وأسأل الله تعالى بفضله أن ينفع به كل من وقف عليه، وأن يستر فضائحنا في الدارين، وأن لا يُعاجلنا بالعقوبة. وأن يصلي ويسلِّم على سيدنا محمد وعلى آله.